أولا: نشأة وتطور علم الاجتماع

01- تعريف علم الاجتماع

علم الاجتماع هو واحد من العلوم الاجتماعية (الاقتصاد، السياسة، علم النفس، علم الإنسان...) الذي انفصل عن العلم الأم "الفلسفة"، محاولا أن يجد له موضوعا ومنهجا للدراسة أساسه فهم سلوك الفرد في إطار المجتمع وتحليل الظواهر الاجتماعية، إلا أن الملاحظ على العلماء والمفكرين على اختلاف اتجاهاتهم وانتماءاتهم الفكرية لم يقدموا لنا تعريفا موحدا لعلم الاجتماع ، لذا سنحاول في هذا المقام تقديم مجموعة من التعريفات أهمها:

أول من استخدم مصطلح **السوسيولوجيا** (SOSIOLOGIE) كان **أوجيست كونت** سنة 1839 في الفقرة 47 من مؤلفه محاضرات "الفلسفة الوضعية"، وسماه في البداية "**الفيزياء الاجتماعية**" وذلك ليقدم علما جديدا موضوعه دراسة **الوقائع المجتمعية** باعتبارها تشكل واقعا متميزا له قوانينه الخاصة كما هي الحال بالنسبة للوقائع الفيزيائية أو البيولوجية. (Dortier et Cabin, 2000, 17)

وقد أطلق عليه في بداية الأمر تسمية (**الفيزياء الاجتماعية**) محاولا بذلك أن يجد له مكانا ومكانة بين العلوم الطبيعية وعلوم المادة.

أما "**ماكس فيبر**" فعرفه بأنه "**علم يهدف إلى فهم الفعل الاجتماعي بطريقة شارحة ويفسر بذلك أسبابه في تتابعه وتأثراته**" ، و(الفعل) هنا سلوك إنساني سواء كان فعلا خارجيا أو داخليا، تخليا أو قبولا...يجب أن يكون الفعل الاجتماعي ذلك الفعل الذي يتبع في معناه المقصود من قبل فاعله أو فاعليه سلوك أفراد آخرين ويتوجه في تتابعه حسب ذلك. (فيبر، 2011، 28-29)

ونجد "**إميل دوركايم**" يعرفه بأنه علم يدرس "**الظواهر الاجتماعية**"، حيث انفرد بتحديد خصائص الظاهرة الاجتماعية كأساس للبحث الاجتماعي مستندا في منهجه على الناحية الوظيفية التي تحفظ النظام الاجتماعي واستقراره.(الطفيلي، 2007، 12)

وهناك مجموعة من العلماء والمفكرين المعاصرين قدموا محاولات لتعريف علم الاجتماع نوجزها في الآتي:

يذهب "جيمس فاندرزاندن" أن ما يميز علم الاجتماع هو كونه علم يدرس **"التفاعل الإنساني** " الذي يتجلى في التأثير المتبادل الذي يمارسه الأفراد في علاقاتهم المتبادلة، التأثير في المشاعر والاتجاهات والأفعال، كما يهتم علماء الاجتماع بالطرق المتواترة التي يكون الناس علاقاتهم من خلالها، والتي تنموا وتتطور من خلالها أيضا أشكال الروابط الاجتماعية المختلفة، كما يعنون أيضا بأساليب المحافظة على استمرار هذه العلاقات والروابط أو تغيرها وحلها.

أما "**ماكجي وزملاؤه**" فيتبنون تعريفا لعلم الاجتماع مؤداه أنه العلم "**الذي يدرس النظام الاجتماعي**" ، حيث يشير تصور النظام الاجتماعي إلى ذلك النمط المنظم الذي يجري وفقا له الشؤون الإنسانية بدءًا من علاقات التعاون البسيطة كأن يعاونك شخص غريب ويقدم لك المساعدة، حتى الجماعات المنظمة التي تتحدث لغة مشتركة وتتشارك نفس الموقف السياسي لأجيال وربما قرون، والنظام الاجتماعي يمتد في معناه أكثر ليشمل القواعد السلوكية والقوانين التي يتعلمها ويكتسبها الناس من خلال المشاركة الاجتماعية.

وتقدم "**لوسيل دبرمان وكلايتون هارتيجن**" تعريفا آخر لعلم الاجتماع مؤداه أنه "**علم يدرس السلوك الإنساني**" ، وعلى خلاف العلوم الاجتماعية الأخرى فهو يعنى بكافة جوانب السلوك الإنساني في وضع اجتماعي معين، فعلماء الاجتماع يدرسون الطرق التي تتكون المجتمعات من خلالها والأساليب التي يتصرف الأفراد في إطار البنيات الاجتماعية المختلفة، إنهم يحاولون أن يفهموا كيف تتحدد الجماعات الإنسانية معا وتتكامل، وكيف تنفصل وتتباعد، ولماذا وتحت أي ظروف يكون التكامل أو الانفصال، كما يهتمون ببعض التغيرات التي تطرأ على المجتمعات الإنسانية ودرجة تقبل أو استيعاب أو رفض ومقاومة هذه التغيرات ". (عودة، 18)

02- ظروف نشأة علم الاجتماع

لقد سبق المفكر العربي "**عبد الرحمان ابن خلدون**" العالم "**أوجيست كونت**" إلى التأسيس وتطوير علم الاجتماع في العالم العربي بأربعة قرون، حينما كان يصدر أعدادا من كتب في التاريخ، وأدرك أنه لا بد من منهج يبين الصدق من الكذب من الأخبار التاريخية، ومن ثمة عكف على مناقشة طبائع العمران البشري وقوانين التجمع الإنساني في مقدمته الشهيرة، حيث عالج فيها أغلب القضايا والمشكلات الاجتماعية التي تعالج اليوم في علم الاجتماع وسماه "علم العمران البشري"، إلا أن أعمال ابن خلدون لم يكتب لها الاتصال أو الاستمرارية ذلك أنه قد واكب سقوط الحضارة العربية الإسلامية وصعود الحضارة الغربية، يضاف إلى ذلك الحواجز اللغوية والثقافية التي أخرت تعرف المفكرين الغربيين على أعمال ابن خلدون وأعماله، ولذلك فإن نشأة علم الاجتماع في الغرب كانت مستقلة عن نشأته في الشرق، لذا ينسب علم الاجتماع في نشأته إلى "**أوجيست كونت**" ، كما كان مرتبطا أشد الارتباط بظروف التحول الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي التي كان يمر بها المجتمع الأوروبي بكافة اتجاهاته وفروعه. (عودة، 71)

برز علم الاجتماع إلى الوجود بوصفه فرعا من فروع العلم والمعرفة بداية القرن التاسع عشر، الذي تميز بتحولات عميقة خاصة في أوربا، خاصة التحولات السياسية المتمثلة في الثورة الفرنسية (1789) التي أفضت إلى انهيار النظام القديم الذي سيطرت فيه الكنيسة على العقول

والسياسة وكل شؤون المجتمع، فقد عملت الثورة الفرنسية بمناداتها إلى المساواة القانونية بين المواطنين على مراجعة أسس النظام السياسي، فهذا الأمر لم يعد من إرادة الأمير وحده، أما التحولات الاقتصادية والاجتماعية فكانت مرتبطة بالثورة الصناعية التي كانت نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، هي أصيلة بريطانيا العظمى، التي انتشرت تدريجيا إلى بلدان الأوروبية الأخرى ثم الولايات المتحدة واليابان.

لقد تميزت هذه الفترة بالانتقال من المجتمع الريفي إلى الحضري، وهو ما أدى إلى انقلاب عميق في البنيات الاجتماعية التي كانت قائمة آنذاك، مثل التضامن القروي ومجموعة العادات والتقاليد والممارسات الاجتماعية، حيث يشير "فرديناند تونيس" إلى التعارض بين نمطين للتنظيم الاجتماعي، الأول يهيمن عليه الروابط التقليدية، العاطفة وروح الجماعة يرتكز أساسا على الأسرة وعلى التضامن المحلي، بينما الثاني يستند أكثر على المصلحة الفردية، الحساب والعلاقات غير الشخصية ويحاول أن يفرض نفسه داخل المجتمع الصناعي. (ريتور، 2015، 18)

ويقول "**لازار سيفيلد**" "إن الثورة الصناعية هدمت النظام القديم ولم تستطع الأفكار والمبادئ العقلانية التي ظهرت في عصر التنوير وروجت لها الثورة الفرنسية في ما بعد الإسهام في إحلال نظام مجتمعي جديد، فكان لابد من طريقة لإحياء الحس الجماعي من خلال دراسة لأشكال الاغتراب والعلاقات الطبقية الجديدة التي كانت تعاني منها الجماهير العمالية، لذلك نلاحظ أن رواد علم الاجتماع ومؤسسيه في القرن التاسع عشر كانوا يضعون نصب أعينهم مهمة إيجاد الحلول والعلاج للتفسخات التي أصابت البنية المجتمعية القديمة التي كانت سائدة قبل انتشار النظام الرأسمالي ". (إبراهيم، 2006، 20)

لقد بدأ التحول الكبير في تفسير وتحليل الظواهر الاجتماعية بعد ميلاد القرن التاسع عشر ، الذي تم فيه استخدام المناهج العلمية لاستقراء السلوك والظواهر الاجتماعية، فالمنهج العلمي وحده الكفيل بالإجابة على التساؤلات المطروحة مستندا على حقائق تم جمعها بواسطة البحث المنظم، لقد نتج عن هذا الأسلوب الجديد في البحث علم هام يدعى "**علم الاجتماع**" وبالانجليزية "**Sociology**". (العزوي وآخرون، 2006، 16)

إن التأسيس لها العلم مهد له مجموعة من العلماء أمثال "كوندورسيه"، "مونتسكيو" و"سان سيمون"، الذين ركزوا جهودهم إلى العلم في المجال المجتمعي كما في بقية مجالات الطبيعة وعلى ضرورة الانتقال في الكون وقوانينه إلى المجتمع البشري وقوانينه، كما دعوا إلى التفتيش عن القانون الذي يحكم المجتمع البشري ككل، وإن كانوا قد شقوا الطريق أمام ظهور علم الاجتماع، فإن أفكارهم بقيت غامضة ولم تظهر الرؤية الجديدة لعلم الاجتماع إلا مع مرحلة التأسيس.(إبراهيم، 2006، 25)

03- التطورات الأساسية لنشأة علم الاجتماع

يمكن أن نصنف ظروف نشأة علم الاجتماع إلى ثلاث تطورات أساسية ترتبط ببعضها البعض ارتباطا وثيقا ومتبادلا تفاعلت وتبادلت التأثير والتأثر على طول التاريخ الأوروبي، ممتدة من انهيار المجتمع الإقطاعي القديم وصولا إلى المجتمع البرجوازي الحديث، وهذه التطورات هي:

أ- التطورات الاجتماعية والاقتصادية:

تتمثل هذه التطورات التي مهدت لنشأة علم الاجتماع في قيام المجتمع الصناعي الرأسمالي على أنقاض المجتمع الإقطاعي القديم، حيث ظهر مع هذا الانتقال تغيرات أفرزت ظواهر ومشكلات اجتماعية يمكن أن نلخص هذه التغيرات في:

- ظهور المدينة الصناعية مكان القرية التي كانت قلب المجتمع الإقطاعي، فبعد انفجار الثورة الصناعية حدث الانقلاب الصناعي وظهرت المصانع الحديثة وفرص العمل الهائلة وتحولت المدن إلى مراكز جذب للقوى العاملة من الريف.
- فتزايدت تبعا لذلك معدلات الهجرة من الريف إلى المدن وظهرت الطبقية في المدن نتيجة تواجد فئة تملك المصانع والمؤسسات ورأس المال ، وفئة أخرى تبيع قوة عملها للأولى حتى تحسن من ظروف عيشها، وهكذا نشب التوتر والقلق والصراع بين الفئتين أو الطبقتين.
- ظهور مشكلات المدينة الصناعية المتمثلة في الفقر، الازدحام، المناطق المتخلفة...الخ

هنا أصبح على الفكر الاجتماعي ضرورة دراسة مثل هذه المشكلات تشخيصا وتحليلا ومحاولة إيجاد الحلول .

ب- التطورات الفكرية والفلسفية:

صاحب التطورات الاجتماعية والاقتصادية سابقة الذكر تطورات فكرية وفلسفية، حيث أن المجتمع الصناعي البرجوازي الجديد أصبح يستخدم أساليب فكرية وفلسفية يسوغ من خلالها لمكانته واستمراريته، بدأت بنشوء المذهب البروستانتي في مواجهة الكنيسة الكاثوليكية نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر وهذا ما يعرف بعصر التنوير الذي تحررت فيه العقول من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، وهنا يمكن أن نبرز دور فلسفة التنوير في القضاء على المجتمع القديم والتمهيد للمجتمع الجديد في النقاط التالية:

- عقلانية الإنسان وقدرته على الوعي بمصالحه وتوجيه التاريخ والمجتمع لصالحه.
- انتصار الإنسان على النظم الاجتماعية التي كانت تكبله للوصول إلى العصر الذهبي.
- مشروعية النقد بمعيار العقل وليس هناك من المقدسات التي تحول دون ذلك.

- مشروعية الثورة والتغيير، فطالما تحرر العقل بالنقد والتمحيص فمن حقه الثورة على أوضاعه الاجتماعية التي يراها غير منطقية أو غير عقلانية.

ت- التطورات السياسية:

انطلقت التطورات السياسية من فرنسا متمثلة في الثورة الفرنسية التي كانت أول ثورة إيديولوجية في التاريخ، أساسها مقولات فلسفة التنوير والثورة على النظم الاجتماعية التي تخلفت عن النظام الإقطاعي القديم، ومن الطبيعي أن تظهر الكثير من المشكلات في معمعة الهدم والبناء الاجتماعي هذه، بحيث تطلب هذا المعالجة والتفسير ، مما جعل البعض يذهب إلى أن "**أوجيست كونت**" مؤسس علم الاجتماع الغربي في فرنسا كانت مهمته في هذا العلم الجديد إصلاح الأوضاع الاجتماعية التي أفسدتها الثورة، أو إعادة البناء الاجتماعي على أساس البحث العلمي والتفكير الوضعي البعيد عن الحماس الثوري المندفع.